القديس أثناسيوس ... والفكر الديني(*)

د. الأنبا يوحنا قلته

أولاً: البيئة التاريخية

١- دخل الإسكندر الأكبر مدينة منف سنة ٣٣٢ ق.م(٢)، تحولت مصر إلى إقليم يخضع للإغريق وانتهى عصر البطالسة بمعركة أكتيوم سنة ٣١ ق.م وبدأ عصر سيادة الرومان، وأضحت الإسكندرية عاصمة البلاد بدلًا من منف، كما أصبحت ملتقى العلوم والفلسفة والأديان، ويكفي أن نشير إلى ترجمة التوراة والعهد القديم إلى اللغة الإغريقية لينتفع بها اليهود المشتتون والمعروفة بالترجمة السبعينية (Vulgate)، وفي الإسكندرية نشر الفيلسوف فيلون (Philon) سنة ٢٠ ق.م إلى سنة ٥٠ م مذهبه عن «الكلمة» أو اللوجوس (Logos) أو الوسيط بين الله والناس ومن ثم انتشرت ظاهرة دينية مركزها الإسكندرية وأخذت في التوسع حتى يمكن القول أن خلال هذه القرون الثلاثة التي سبقت ميلاد المسيح له المجد نشأت ديانة مشتركة بين ديانات حوض البحر المتوسط(٣)، وإن شئنا أن نحدد ملامح هذه الظاهرة الدينية المشتركة بين البلدان ذات الجغرافية الشاسعة والمجتمعات المتنوعة والعبادات العديدة، نقول أنها ظاهرة نشأت من أصول الديانة المصرية وطقوسها ومصادر الفلسفة اليونانية ومن التراث القديم لتلك الشعوب أطلق على هذه الظاهرة المستشرق البلجيكي (FRANZ. CUMONT) عصر الخلط الديني أو عصر التلاقي: L'age du syncretisme(٤).

(*) مكتبة الإسكندرية - لجنة الفلسفة - السبت ١٣ / ١٢ / ٢٠٠٨.

(٢) منف هي عاصمة مصر القديمة، ومكانها الآن ميت رهينة قرب البدرشين جنوب القاهرة.

(٣) مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي - هـ. آيدرس بل - ترجمة عبد اللطيف أحمد على - دار النهضة العربية - سنة ١٩٦٨ - صـ ٣٩.

(4) Les syncretismes religieux dans le monde mediterranien antique Corinne bonnet et andromotte .page 131 -- بروكسيل سنة ١٩٩٩

٢- أدى هذا التلاحم الديني إلى إبداع ثقافة معقدة وغنية أكدت على أمرين مهمين الانفتاح والامتزاج بين الديانات والثقافات من جهة، والتأكيد على قيمة «الإنسان» كشخص قبل قيمة المجتمع من جهة أخرى، أمر لم تعرفه المجتمعات قبل هذا العصر وانتشرت فكرة: الإنسان المواطن في العالم (Kosmopolite) كما فتحت أبواب العقل نحو وحدة الجنس البشري أو المصدر الإلهي للإنسان (Ratio divina) التي استلهم منها رواد عصر النهضة يقظة فلسفية وفكرية وأعلنوها شرطًا للتقدم والحضارة[١]، فالقرون الثلاثة التي سبقت الميلاد كانت مشهدًا تاريخيًا فريدًا لتفتح الثقافات واختلاطها وظل تأثيرها بعد الميلاد زمنًا طويلًا، وهذا لا يعني أن عالم الأساطير وعبادة الأوثان قد ولّى، بل ظلت الخرافات والبدع وممارسة طقوس السحر والشعوذة مختلطة بالعقائد الدينية، وخلاصة القول يمكن أن نفهم أن عصر الثقافة الهللينية عرف بعدم التعصب أو الحرب بسبب الأديان[٢].

٣- نشير إلى أمرين مهمين سيطرا على هذه الفترة حتى بعد الميلاد:

أولهما: الميل إلى الاعتقاد بفكرة «الإله الواحد» نجد عبارات تتردد في الصلوات والأدعية تؤكد هذه الحقيقة مثل عبارة «الواحد، الأحد» كتبت العبارة على إحدى لوحات «كتاب العبور إلى النهار» الذي عرف باسم كتاب الموتى وتقول العبارة: «أيها الواحد، الأحد الذي خلق البشر، والجنوب والشمال، والغرب والشرق كلهم يقدمون الحمد للإله رع» وهو يمثل «النطق الإلهي» فهو يخلق الأشياء بنطقه[٣]، فلم تذهب محاولة إخناتون لنشر عقيدة الوحدانية هباء، برغم محاولة كهنة آمون إجهاضها إلا أنها انتشرت إلى كافة بلدان المتوسط، بل لعلها كانت إلهامًا لفلاسفة اليونان: سقراط وأفلاطون وأرسطو الذين صاغوا فلسفة قوية ونظرية متكاملة للبرهنة على وحدانية الخالق، وفي نشيد آتون نقرأ هذه العبارة: «أنت الواحد، أنت الوجود قبل الوجود، أنت خالق السماء والأرض، الذي

---

(١) الموسوعة التاريخية الحديثة - تاريخ عصر النهضة الأوروبية: د/ نور الدين حاطوم. دار الفكر الحديث لبنان صـ ٨٥.

(٢) هلليني أو إغريقي ويوناني كلها بمعنى واحد. وهلليني نسبة إلى هلاس، بلاد اليونان - هـ آيدرس بل صـ٣٨ - ٣٩.

(٣) كتاب الموتى للمصريين القدماء - محسن لطفي السيد - مطابع روز اليوسف - سنة ٢٠٠٤ - صـ ١٣.

يعطي الامتلاء لكل كائن»[١]، وعن الفراعنة أخذ نظام الكهنوت وبعض طقوسه وأشار الكتاب المقدس في سفر الأعمال إلى هذا التأثير بقوله: وتعلم موسى الحكمة من المصريين (سفر أعمال الرسل ٧: ٣٢) فالحضارات تتناسل والثقافات تتكامل وهو أمر لا يمس الوحي الإلهي في شيء.

الأمر الثاني: أن مصر احتفظت بالسيادة الدينية، ومارس اليونان ثم الرومان الطقوس الفرعونية بتقاليدها في المواسم والأعياد والمآتم[٢] لقد أثرت سيادتهما بلا شك على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لكن لم تهزم الديانة المصرية، وظلت المعابد شامخة تؤدي دورها وأقام اليونان والرومان معابد يقلدون المصريين في هذا المجال، هذا كله يشرح الشموخ الديني المصري، وكبرياء التاريخ وريادة مصر للاهوت المسيحي في العصور الأولى للمسيحية كما يشرح لنا موقف بطاركة الأقباط، وعظمة أثناسيوس.

ثانيًا: القديس أثناسيوس والفكر الديني

١- المسيحية ديانة «لاهوتية» إن صح التعبير، بمعنى أن رسالتها أن تكشف ما أعلنه المسيح مؤسسها عن «الله الحق» عن قدرته الخالقة كما بينه العهد القديم، وعن محبته الفائقة للإنسان كما أوضحه العهد الجديد، وأن تخترق حدود العقل لكي تشرح «ذات الله» وذات الله في المسيحية جوهره محبة ليست صفة من صفاته، تؤمن بأن الله واحد لا إله إلا هو وكما جاء على لسان المسيح «أنا هو الرب إلهك لا يكن لك إله غيري» وأما عقيدة الثالوث فهي شرح للوحدانية، ليست تجزئة لله أو شركًا به أو تعددية، فالمسيحيون يصلون كل يوم قانون إيمانهم «نؤمن بإله واحد» ويؤمنون بأن الله الواحد الأحد المحبة، له نطق إلهي هو الكلمة، وهي من ذات الله، وفي ذاته، كما عبر إنجيل يوحنا (١٧: ١٠ – ٢٥)، والروح القدوس روح الله، وروح كلمته، عبرت عنها المسيحية بتعبير الثالوث وإن لم يأت هذا التعبير في الكتاب المقدس صراحة، لكنه جاء ضمنًا في تعاليم المسيح، فالله الواحد القدير لا إله إلا هو، هو الله الكلمة، هو الله الروح.

---

(1) Les. Secrets. De L'exode. Messod. Et. Roger. Sabbah – Le grand. Livre. du. mois – page 99

(٢) المصدر السابق.

المسيحية إذن هي اكتشاف عظمة وثراء سر الذات الإلهي الأبدي المطلق، والمسيح هو كلمته الذاتية الناطقة، والكلمة اتحدت بالطبيعة البشرية ليكون المسيح خميرة القداسة والوسيط الذي جمع في ذاته المطلق والمحدود، الأبدي والزمني، شعاع من نور الله، قائم فيه، بلا انفصال أو نقص، أما القيم الأخلاقية فلم يلغ المسيح الوصايا العشر بل ثبتها كدستور إلهي أخلاقي هو أساس العلاقة بين الإنسان وبين ربه، وبينه وبين أخيه الإنسان الآخر، جاء المسيح ليكمل ويتمم ما نقص فيها بدعوته للكمال «كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل» (متى ٥: ٤٨) لم يضع نظمًا اجتماعية، أو مذهبًا سياسيًا أو مشروعًا اقتصاديًا، أو رؤية فقهية لأحوال الناس فتلك أمور بشرية، ينظمها البشر بنور تعاليمه وشريعته.

٢- نقول أن المسيحية ديانة «لاهوتية» وعناصر القضايا اللاهوتية التي تشغل رسالتها وتشعل الخصومة معها، فيقبلها البعض، ويرفضها البعض، هذه العناصر يمكن إيجازها في هذه الكلمات:

- قضية خلق الإنسان على صورة ومثال خالقه (أي عاقلًا حرًا).
- سقوط آدم وحواء في خطيئة التمرد ثم عهد الله لإبراهيم.
- النبوات التي نطق بها أنبياء العهد القديم وتحققت في شخص المسيح.
- تجسد الكلمة، وسر الفداء، وقيامة أو بعث المسيح من الموت.

انطلقت المسيحية بعد صعود المسيح إلى السماء من أورشليم، وتوزع الحواريون على مناطق العالم يحملون البشارة بالإنجيل بعد أن عاشوا ثلاث سنوات في صحبة المسيح معلمهم، حاملين إيمانًا جديدًا وواجهوا الإمبراطورية الرومانية الشاسعة التي تجمع عدة شعوب تحافظ على عاداتها ولغاتها وثقافاتها، وغلبت لغتان أساسيتان على الإمبراطورية

(أ) اللغة اليونانية: وقد كانت في الأصل لغة بعض المدن، فأصبحت بعد فتوحات الإسكندر (٣٥٦-٣٢٣ ق.م) اللغة المعتمدة في الشرق كله وحلت محل عدة لهجات تدعي «الشائعة» ولم تكن لغة الثقافة فحسب بل لغة التجارة الدولية أيضًا، وانتشرت في روما وبعض مدن الغرب، فاليونانية هي لغة الكنيسة في قرونها الأولى

ويستعمل المسيحيون الترجمة اليونانية للكتاب المقدس التي أشرت إليها وهي «السبعينية» وكتب الإنجيل وسائر أسفار العهد الجديد باليونانية وكذلك المؤلفات اللاهوتية ونصوص الطقوس الدينية.

(ب) اللغة اللاتينية: هي لغة روما والغرب كانت في البدء أقل انتشارًا من اليونانية لكنها ظلت لغة الإدارة والحقوق والقوانين للإمبراطورية واستعملت في الكنيسة كلغة عادية وفي بعض بلدان إفريقيا وفي الغرب المسيحي كافة خلال القرن الثالث الميلادي، ومن اللغة اليونانية دخلت أساليب الفكر والفلسفة في الكنيسة وعلم اللاهوت كما استعملت اللغة اللاتينية في القوانين لخلق إطار قانوني للجماعات، أما في القرن الرابع فقد انفصلت اللغتان واستقلت بمناطق محددة، وواجهت المسيحية تحديًا من قبل الديانات التقليدية الموروثة وبخاصة عبادة الآلهة التي ترتبط بالطبيعة وأحوالها، ديانة عبادة الإمبراطور وهي ديانة لخدمة السياسة تؤله الإمبراطور في حياته وفي موته، كما واجهت الفلسفة اليونانية وبخاصة الفلسفة الرواقية التي تؤمن بالإله الواحد، وتشدد على التطهر الباطني، أضف إلى ذلك واجهت المسيحية مجتمعًا قاسيًا، يضم غالبية مطحونة من العبيد والرقيق وأقلية تملك وتسود[١]...

٣- أثناسيوس، وباللغة العربية خالد، ولد سنة ٢٩٨ – ٢٩٩ م بمدينة الإسكندرية[٢] من عائلة مسيحية ونال تربية دينية واسعة وثقافة عصره وأتم دراسة الكتاب المقدس وبرع في شرحه حتى شبهه اغريغوريوس النزينزي بآباء الكتاب، نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان[٣]، واعتمد في مؤلفاته على الكتاب مما جعله مغلماً للإيمان المسيحي وأنصب دفاعه حول عقيدة «تجسد الكلمة» (اللوجس) مما أسبغ عليه لقب عامود الإيمان ومحامي العقيدة، ولا نعرف الكثير عن طفولته وصباه إلا أطرافًا من قصص ذكرها التاريخ

(١) كتاب تاريخ الكنيسة، جان كومبي، ترجمة نخبة، دار المشرق بيروت – سنة ١٩٩٤ صـ ٣٨ - ٤١.
(٢) الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة – جزء أول طبعة عن النسخة الأصلية لمؤلفه الأسقف أسيذوروس – القمص عطا الله ارسانيوس المحرقي صـ ٢٩٨
(3) G.C .Stead «ATHANASE» D.E > C > A cerf Paris 1990 p 285

تدل على نشأة وسيرة دينية حقيقية، لحق ببطريرك الإسكندرية إسكندر كسكرتير خاص وتولى إتمام تثقيفه اللاهوتي والروحي، وتأثر كثيرًا بآباء الكنيسة القبطية اكليمنضوس واوريجانس، اشتعلت نار بدعة كاهن اسمه أريوس من أصل ليبي يعيش في الإسكندرية سنة ٣١٨ الذي مزق الكنيسة وأنكر أسس الإيمان المسيحي ونشر بدعته في سائر أنحاء بلدان المتوسط، وأدرك أثناسيوس منذ شبابه أنه مدعو للدفاع عن إيمانه، وكان يعشق الصحراء وزيارة الأديرة وله صداقة قوية مع القديس أنطونيوس أبي المتوحدين وكتب أثناسيوس سيرة هذا الراهب، كما طبعته السنوات التي قضاها في الدير بطابع الزهد، وعقد مجمع مسكوني بمدينة نيقية سنة ٣٢٥ حضره ثلاثمائة أسقف وهي مدينة صغيرة بالقرب من المقر الإمبراطوري شرق مضيق البوسفور، وبدعوة من الإمبراطور قسطنطين وشارك أثناسيوس في المجمع كسكرتير لبطريرك الإسكندرية، وأعلن المجمع قانون الإيمان المسيحي أو إطار العقيدة، رافضًا بدعة أريوس، وعاد أثناسيوس إلى الإسكندرية ليصبح بطريركًا سنة ٣٢٨ (في السابع من شهر يونيو) ولم يتجاوز عمرة الثلاثين عامًا وظل بطريركًا خمسة وأربعين عامًا[١]، حتى رحل إلى موكب المجاهدين يوم ٣ مارس ٣٧٤ م.

٤- ما هي بدعة أريوس؟

آمن المسيحيون بما جاء في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، إيمانًا بسيطًا دون تعقيد فقد أعلن المسيح بوضوح أنه كلمة الله الذاتية الناطقة، قريب إلى الله، موجود في الذات الإلهي وجود النطق والحكمة هكذا أوجز أنجيل يوحنا في آياته الأولى «في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة عند الله، وكان الكلمة الله» (يوحنا ١: ١) الكلمة هي اللوجوس في اليونانية LOGOS، وهي Verbum في اللاتينية، وكتب فلاسفة الإغريق كثيرًا عن اللوغوس أو الفكر أو العقل الإلهي، ولكن المسيحية وجدت نفسها مضطرة لشرح عقيدتها أمام العالم الذي يحيط بها، وما فيها كما يبدو ظاهريًا متناقضًا، كيف يكون الله واحدًا وفي الوقت ذاته آبًا وأبنًا، كيف يتسنى لإنسان يولد ويحيا ويبعث أن يتحد باللاهوت، والله تعالى عن هذه الأمور كلها[٢]، من هنا ولد علم اللاهوت المسيحي للإجابة وشرح كل هذه الأسئلة،

(١) القديس اثناسيوس الإسكندري – تأليف جان ماري لورور – منشورات المعهد بالمعادي – ترجمة أنطون نحال – صـ ٢٢.

(٢) تاريخ الكنيسة جان كومبي – المصدر السابق صـ ١١٧.

ومن هنا أيضًا خرجت البدع وشطح التفكير اللاهوتي في اتجاهات متباينة، وكان لابد من عقد مجامع مسيحية مسكونية لتحديد مفاهيم العقيدة ووضعها في إطار واضح لا لبس فيه، يحسم النزاع، ويفرز الصحيح من الضلال، وعقد مجمع نيقية كما أشرت وصاغ قانون الإيمان الذي نردده منذ سنة ٣٢٥ وحتى الآن، وتردده جميع الكنائس، وهذا النص وضع بعد نقاش عنيف تداخلت فيه مصادمات شخصية وثقافية وإقليمية بل وكان قديس المجمع ومعلمه هو أثناسيوس المصري[1] حتى دعي القرن الرابع الميلادي بقرن أثناسيوس.

ماذا تقول بدعة آريوس:

أ- لم يوجد الكلمة مع الله منذ الأزل، بل خلق من العدم.

ب- ليس الكلمة أبنًا للآب بالطبيعة ولا بحصر المعنى.

ج- طبيعة الكلمة أو الابن لا تصدر من طبيعة الله.

د- خلق الكلمة بإرادة الله.

هـ- الكلمة «المسيح الإنسان» خاضع لعوامل الجسد وللتغيرات الأدبية.

ماذا يقول مجمع نيقية بصياغة بطريرك الإسكندرية:

أ- وجد الكلمة مع الآب منذ البدء، فالله وكلمته جوهر واحد.

ب- لم يخلق الكلمة بل خلق الله كل شيء بنطقه وبكلمته.

ج- كلمة الله من طبيعة الله وليس أبنًا بالتبني، هو والله جوهر واحد.

د- الكلمة بطبيعته الإلهية لا تخضع للتغيير وللألم، بل يخضع بطبيعته الإنسانية.

يعتبر المجمع المسكوني الأول، هو مجمع نيقية، وجاء المجمع المسكوني الأخير وهو فاتيكان الثاني سنة ١٩٦٤ وهو الواحد والعشرون في ترتيب المجامع.

---

(١) المصدر السابق – صـ ١١٨.

٥- ظل أثناسيوس في عصره رمزًا لمقاومة البدع وانحراف الفكر عن حقيقة الإيمان المسيحي وقف سدًا منيعًا أمام الآريوسيين، والرواقيين، والوثنيين، فهو رمز للمقاوم المخلص دفاعًا عن عقيدته التي ترتكز على الكتاب المقدس وتقاليد الحواريين، وامتلأ قلبه عشقًا بالمسيح، وله كلمة شهيرة إن الإيمان المسيحي لا يفرض فرضًا بل بالاقتناع والحوار والقدوة[1] وقضى حياته مخلصًا لعقيدته وترك إرثًا لاهوتيًا هو من أسس الإيمان المسيحي ورحل سنة ٣٧٤ م.

خاتمة

يشير جمال حمدان في كتابه «شخصية مصر» إلى ظاهرة تاريخية رائعة يقول ليس هناك ديانة لم تؤثر فيها مصر، وليس هناك حضارة لم تستمد بعض عناصرها من مصر، ومن اللافت للمفكر، أن موسى النبي تعلم الحكمة في مصر وأعد لاستلام الوحي الإلهي، وقبله جاء إبراهيم أبو الأنبياء الذي نزوج مصرية، ثم جاء المسيح ووفق التقاليد عاش بعض طفولته في مصر، ولما فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٢٠هـ ومعه أربعة آلاف مقاتل لم يجد أمة مصرية مستقلة، بل واجه قوتين، قوة المحتل البيزنطي الذي أذل المصريين بسبب الخلافات العقائدية والسياسية، وواجه كنيسة قبطية تتمركز قوتها حول بطريركها حتى في منفاه، وكان عمرو أدرى بشؤون مصر فقد عاش تاجر جلود بين الحجاز ومصر، فله دراية بأحوالها ودروبها وسكانها ولذلك احترم الكنيسة القبطية وكرم بطريركها ووضع تقليدًا لازال شائعًا حتى اليوم هو وحدة المصريين مسلمين وأقباطًا، بل فكر كما يشير بعض المؤرخين إلى أنه أراد أن يحتفظ بالإسكندرية عاصمة لمصر، ومنعه الخليفة عمر بن الخطاب، فمصر الفرعونية قدمت للعالم حضارة هي أم الحضارات .. واكتشفت وحدانية الخالق، ومصر القبطية قدمت للعالم أسس اللاهوت المسيحي بكل تضحيات وفداء، ومصر الإسلامية ظلت على مدى التاريخ الإسلامي، الوطن المعتدل في عقيدته ومجتمعه ... وحصن الإسلام المنيع

أنها شخصية مصر واحد الذي جسدوا عظمتها القديس اثناسيوس.

---

(١) اثناسيوس الإسكندري - تاريخ الآريوسيين صـ ٢٠٠.